"حاملات الطّيب"
(مرقس ١٦: ١-٨)

الأب سمير بشارة اليسوعي

١٦ ١ولَمَّا انقَضَى السَّبتُ اشتَرَت مَريمُ المِجدَلِيَّةُ ومَريمُ أُمّ يَعقوبَ وسالومة
طِيباً لِيَأتينَ فيُطَيِّبْنَه. ٢وعِندَ فَجرِ اليَومِ الأوَّل منَ الأسبوعِ جِئنَ إلى القَبرِ وقد
طَلَعَتِ الشَّمس. ٣وكانَ يَقولُ بَعضُهُنَّ لِبَعض: "مَن يُدَحرِجُ لنا الحَجَرَ عن بابِ
القَبرِ ؟" ٤فنَظَرْنَ فرَأَيْنَ أَنَّ الحَجَرَ قَد دُحرِجَ، وكانَ كبيراً جِداً. ٥فدَخَلْنَ القَبرَ
فأَبصَرْنَ شَاباً جالِساً عنِ اليَمينِ عَلَيه حُلَّةٌ بَيضاء فَارتَعَبْن. ٦لَكنَّهُ قالَ لَهُنَّ: "لا
تَرتَعِبْنَ! أَنتُنَّ تَبحَثْنَ عَن يسوعَ النَّاصريِّ الَّذي كانَ قَد صُلِبَ. إِنَّه قامَ ولَيسَ ههُنا.
هذا هو المَكانُ الَّذي كانوا قد وضَعوه فيه. ٧فَاذهَبْنَ وقُلْنَ لتَلاميذِه ولِبُطرس: "إِنَّه
يَتَقَدَّمُكم إلى الجَليل، وهُناكَ تَرَونَه كَما قالَ لَكم". ٨فخَرَجْنَ مِنَ القَبرِ وهَرَبْنَ، لِما
أَخَذَهُنَّ مِنَ الرِّعدَةِ والدَّهَش، ولَم يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيئاً لأَنَّهُنَّ كُنَّ خائِفات...

مقدّمة

"و لم يقلن لأحد شيئاً، لأنهنّ كنّ خائفات" (١٦: ٨).

من الغريب أن يختم مرقس إنجيله بهذه العبارة ! هي تكشف، في الواقع، عن إطار الدراما التي ينطبع فيها إعلان موت المسيح و قيامته: دراما أو مسلسل دقيق، يميّزه نظام علاقات لغويّة مبنيّة على فنّ التوازي الأدبيّ (المتناقض والمتجانس) بين العبارات، بحيث يفيد بمعنى النصّ و يفرج عن لاهوته الرفيع. لذا، سنركّز في دراستنا على إحدى المنهجيّات الجديدة، وهي "المنهجيّة البلاغيّة"، أي على تحليل النصّ البيبليّ من حيث المقابلة وتوازي المصطلحات،

و التي تساعد على توضيح بنية النصّ، و بالتالي التوصّل إلى فهم رسالته بصورة أوضح . وإنّنا سنتبّع التصميم التالي: عرض البنية و تحليلها، خلاصة، ومن ثمّ قراءة إيحائيّة، وخاتمة.

أوّلاً ـ البنية والتحليل

ينقسم نصّ مر ١٦ : ١—٨ إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة مرتبطٍ بعضها ببعض: ١) حركة النساء نحو القبر (آ١ ـ ٢) ؛ ٢) وجود النساء أمام القبر (آ ٣ ـ ٤) ؛ ٣) النساء داخل القبر (آ ٥ ـ ٨) . نلاحظ أنّ بنية القسمين الأوّلين هي بشكل توازٍ متناوب (تسلسل متقطّع)، أما في القسم الثالث فهي بِشكل توازٍ مركزيّ (تسلسل متصاعد)(١).

١ ـ حركة النساء نحو القبر (آ١ ـ ٢)

البنية

(أ)	١ولَمَّا انقَضَى السَّبتُ	٢وعِندَ فَجْرِ اليومِ الأول من الأسبوع	(أ')
	اشتَرَت مَريمُ المِجدَلِيَّة		
	ومَريمُ أُمُّ يَعقوبَ وسالومة		
(ب)	طِيباً لِيَأتِينَ فيُطَيِّبنَه.	جِئنَ إلى القَبْرِ	(ب')

↓

وقد طَلَعَتِ الشَّمس

---

(١) إنّ البنية المتناوبة تشير عادةً إلى ديناميّة "توتّر" في النصّ، في حين أنّ البنية المركزيّة تشير إلى ديناميّة "انفراج" وحلّ العقدة فيه .

لا بدّ من التذكير بأنّ ما يتيح القيام بالتوازي بين مصطلحَين هو أولاً التجانس أو التناقض اللغويّ في النصّ (من حيث الشكل)، ولا المعنويّ (من حيث المضمون). وإنّ العبارات المسطّرة في البنية توضح هذا التوازي .

تلخيص البنية

(أ) زوال يوم السَّبت ——— بدء يوم الأحد (أ')

(ب) "مراسم الدفن" ——— مراسم الدفن" (ب')

↓

شروق الشَّمس

يميّز الوحدة الأدبيّة هذه عنصران أساسيّان: عنصر الزمان (أ–أ') والمكان (ب–ب')؛ فالإشارة إلى انقضاء يوم "السبت" (أ) يوازيها إشارة أخرى إلى بدء يوم "الأحد" (أ') ؛ في حين أنّ حركة النساء نحو القبر مشار إليها في ب–ب' بالفعلَين المرادفَين: "يأتين" (ب) و"جئن" (ب') ؛ والمكان المُستهدَف هو "القبر" (ب')، يُعبَّر عنه من خلال المصطلحَين: "طيب و يطيّبنه" (ب)، اللذين يوضّحان هدف مجيء النساء إلى القبر.

"وقد طلعت الشّمس" (م). تَشكّل هذه الكلمات المحور الرئيسيّ. يأتي التركيز هنا على أهمّية عنصر "الزمن": لقد سبق أن أشار مرقس في الآية ذاتها إلى ظاهرة "الفجر"، حرفيًا: "باكرًا جدًّا" (آ. ٢)؛ فمن المستغرب أن يضيف في آنٍ واحد أنّ الشّمس قد طلعت! علمًا أنّ بين الفجر و شروق الشّمس فترة من الزمن لا بدّ منها...

٢ - وجود النساء أمام القبر (٣ - ٤)

البنية

(أ) ٣ وكانَ يَقولُ بَعضُهُنَّ لِبَعض: ؛فنَظَرْنَ و رَأَيْنَ (أ')

(ب) "مَن يُدَحرِجُ لنا الحَجَرَ عن بابِ القَبْر؟" أنَّ الحَجَرَ قَد دُحرِجَ، (ب')

↓

وكان كبيراً جِدّاً.

تلخيص البنية

(أ) تساؤلات ——— تأكيدات (أ')

(ب) إزالة الحاجز ——— إزالة الحاجز (ب')

↓

ضخامة الحاجز

إنّ العنصر "السمعيّ ـ البصري" المعبَّر عنه بالأفعال: "قلنَ" (أ) و"نظرنَ– رأينَ" (أ')، يميّز الجزء الأول من الوحدة الأدبية هذه، وحيث تتوازى التساؤلات "بالكلام" من جهة، مع التأكيدات "بالنظر" من جهة أخرى .

في حين يَبرز في التوازي الثاني (ب–ب') عنصر مادّي و"جامد"، إنّه "الحجر" و حتميّة إزالته .

"وكان كبيرًا جدًا" (م) . يركّز المحور الرئيسي هذا على ضخامة الحاجز: و كأنّ التشديد يأتي على الحدث "العجائبي" المتعلّق بحجم الحجر، و صعوبة إزالته .

٣ ـ النساء داخل القبر (٥ ـ ٨)

(أ) ٥ فدَخَلْنَ القَبْرَ فأبصَرْنَ شَابًّا جَالِسًا

عنِ اليَمينِ عَلَيه حُلَّةٌ بَيضاء فَارتَعَبنَ.

(ب) ٦ لكنّه قالَ لَهُنَّ: "لا تَرتَعِبنَ !

أَنتُنَّ تَبحَثْنَ عَن يسوعَ النَّاصريّ

(ج) الذي كان قد صُلِبَ.

(م) ← إنّه قامَ وليسَ ههُنا !

(ج') هذا هو المَكانُ الَّذي كانوا قد وضَعوه فيه.

(ب') ٧ لكن اذهَبنَ وقُلنَ لِتَلاميذِه ولِبُطرس: إِنَّه يَتَقَدَّمُكم
إلى الجَليل، وهُناكَ تَرَونَه كَما قالَ لكم".

(أ) ٨ فخَرَجْنَ مِنَ القَبْرِ وهَرَبْنَ، لِما أَخَذَهُنَّ مِنَ الرِّعدَةِ
والدَّهَش، ولَم يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيئًا لأَنَّهُنَّ كُنَّ خائِفات.

تلخيص البنية

(أ) دخول و خوف

(ب) تبشير و"بحث" عن يسوع الناصريّ

(ج) المصلوب

(م) ← حضور و غياب

(ج') المدفون

(ب') تبشير و"مشاهدة" يسوع الجليليّ

(أ') خروج و خوف

تتألّف البنية المركزيّة هذه من ثلاثة أجزاء متوازية في محور رئيسيّ:

يأتي التركيز في أ–أ' على دخول النساء القبر وخروجهنّ منه، وهنّ في حالة الخوف والرعدة ؛ و يركّز التوازي الثاني ب–ب'، من جهة، على "البحث" عن المسيح والتبشير به من قبل الملاك (ب)، ومن جهة أخرى، على "رؤية" المسيح والتبشير به من قِبل النساء (ب') ؛ ويُبرز التوازي الثالث بصورة واضحة وضع المسيح المَيت، في حالتَي الصلب والدفن.

"إنّه قام و ليس ههنا!" (م). يُبرز المحور المركزيّ هذا حالة المسيح الحيّ القائم من بين الأموات: فيأتي التركيز، بشكل متناقض، على حضور المسيح المتمتّع بملء الحياة من جهة، وعلى غيابه كليًّا عن الأنظار، من جهة أخرى.

ثانيًا ـ خلاصة

يركّز نصّ "حاملات الطّيب"، كما رأينا من حيث البنية، على ثلاثة محاور رئيسيّة هي: شروق الشّمس؛ ضخامة الحجر؛ حضور المسيح و غيابه.

سبق أن ذكر مرقس عنصر "الشّمس" في الفصل ١٣، الآية ٢٤: "وفي تلك الأيّام، بعد هذه الشدّة، تُظلم الشّمس...": يشير الإنجيليّ هنا، في إطار نبوءة يسوع بدمار الهيكل، إلى بعض العلامات الخارقة التي تسبق مجيء المسيح في المجد، وأوّلها غياب الشّمس و عدم شروقها .

كما يشير أيضًا إلى حتميّة "إزالة الحجر"، حجر الهيكل، في النبوءة ذاتها، حين يعلن يسوع لتلاميذه: "أترى هذه الأبنية العظيمة؟ لن يترك هنا حجر على حجر من غير أن ينقض" (١٣: ٢) .

و يشدّد مرقس أخيراً في الخطاب الأخيريّ نفسه، وفي جوّ من الخوف والرّعدة، على وضع "غياب" المسيح: "وعندئذ إذا قال لكم أحد من النّاس: ها هوذا المسيح هنا، ها هوذا هناك! فلا تصدّقوه" (١٣: ٢١ و٦). كما يشدّد على "حضوره": "وحينئذ يرى النّاس ابن الإنسان آتيًا في الغمام في تمام العزّة والجلال" ... "وكذلك أنتم إذا رأيتم هذه الأمور تحدث، فاعلموا أنّ ابن الإنسان قريب على الأبواب" (١٣: ٢٦ و٢٩) .

لا بدّ هنا من طرح السؤال: هل من مقاربة ممكنة بين الأحداث الأخيريّة التي يصفها مرقس في الفصل ١٣ وحدث قيامة المسيح ؟ وهل المراجع المذكورة في الخطبة الإسكاتولوجيّة هذه تستطيع أن تلقي أضواء على المحاور الثلاثة التي برزت في نصّ (١٦: ١–٨) ؟

ما يمكننا قوله، بشكل وجيز و في إطار هذه المحاضرة، إنّ ثمّة ترابطًا لافتًا قائم بين العناصر التالية: ١) "الشّمس" وشخص يسوع المسيح "نور العالم"؛ ٢) "دمار الهيكل" وإزالة "الحاجز" الحجريّ؛ ٣) مجيء المسيح في المجد و قيامته من بين الأموات من جهة، وحضور مسحاء دجّالين وغياب المسيح عن القبر من جهة أخرى (وللموضوع صلة).

إذا رجعنا إلى النصّ، نلاحظ أنّ مرقس اعتمد الهيكليّة ذاتها (توازٍ متناوب) في البنيتَين الأولى والثانية (١٦: ١-٢ و٣-٤)، في حين اعتمد التوازي المركزيّ في البنية الثالثة (٥-٨)، و هذا يدعونا إلى قراءة مقارَنة بين البنيتَين الأولَيين، هنا من حيث العناوين:

يوم السّبت ــ تساؤلات يوم الأحد ــ تأكيدات

مراسم الدفن ــــ إزالة الحاجز

شروق الشّمس ــــ ضخامة الحاجز(٢)

نستلهم إذًا من هذه المقاربة بعض المفاتيح التي تُفيد لقراءة نصّ "حاملات الطّيب" قراءة إيحائيّة.

ثالثًا ـ قراءة إيحائيّة لنصّ (١٦:١-٨)

هل "انقضى السّبت" تمامًا لهؤلاء النساء اللواتي استصحبن المسيح إلى الجلجلة ؟ ألم تستمرّ الجلجلة داخليًا في قلوبهنّ وهنّ يشترين الطيوب ويبتعن الزيوت ؟ ولماذا؟ من أجل أن يبقى الحبيب مدفونًا... في تراب الموت ! وهل كان لهذا السبت نهاية ما دام العريس مقيّدا بسلاسل الشريعة التي قضَت عليه ؟

---

(٢) هذه المقاربة بين الشّمس وحجر القبر لافتة من حيث إنّ كليهما "مستدير" أو "كرويّ" الشكل.

لكنّ الانجيليّ يقول إنّ الشّمس قد طلعت في "اليوم الأوّل من الأسبوع"، وهذا هو، في سفر التكوين وفي كلّ ذهن يهوديّ ، اليوم الذي فيه كان النور.

إنقضى(٣) السبت فغابت الشريعة القاتلة الأنبياء، وجرفت معها تاريخ خيانات، ومواعد غير متمّمة، وانتظارات خائبة دُفِنت في مراسم لم تفطن لها النساء.

وكان عهد قديم .

"وطلعت الشّمس...". يعلن مرقس البشير : شروق الشّمس الذي أنار في اليوم الأوّل من الأسبوع ، أيِ يوم "الأحد" .

وكان عهد جديد .

"وقال بعضهنّ لبعض...". ماذا قلنَ وفيمَ تشاورنا على الطريق ؟ والكلام يحدّه الزمن والتساؤلات التي تكثر كالغبار، غبار الشكوك والهموم : وكأنّ حَيرة العهد القديم كلّها صُبّت في طيوب أولئك النساء اللواتي مزَجن زيت الإيمان والرجاء بزيت القهر والألم .

وإنّها حواجز لا تدحرج بسهولة : "وكان الحجر كبيرًا جدًّا".

"فنظرن و رأين... ": وكأنّ جهل العهد القديم كلّه وغموضه في حاجة قصوى إلى نظرة شفافة ورؤية جديدة. فالحجاب الذي كان يحجب النور تلاشى والأذهان الغليظة الفهم توارت، ولم يعد من كسوف للشّمس بعد الآن.

إنّ دخول النساء القبر وخروجهنّ أمر غريب: كما دخلن بخوف ورعدة خرجن بخوف ورعدة، وكأنّ لغة الورع والتقوى شرط أساسيّ لالتماس الحقيقة... وما من بحث ممكن عن العريس المفقود من دون التواء الجسد

(٣) "إنقضى": يشير هذا الفعل في اليونانيّة ("دياغينومنو") عادةً إلى حركة لا رجوع لها (راجع من باب المثل: أع ٩:٢٧).

والقلب معًا. فالبحث عن المصلوب المدفون في أراضي أورشليم المقدّسة ينادي الى رؤية حسّية في أراضي الجليل المهمّشة : أي على أرض الواقع اليوميّ والعاديّ لتجلّي المسيح من الآن وصاعدًا.

في وسط هذه الحركة، حركة الجسد والقلب النابض، وحركة العين والأذن المتيقّظة، يدوّي التبشير المذهل: "إنّه حيّ ! ليس ههنا!".

أين هو ؟

إنّه تدشين حضور الله و غيابه في وسط البشر !

يدشّن المسيح القائم من بين الأموات إيمانًا جديدًا، إيمانًا مجرّدًا من كلّ ما كان مألوفًا حتى الآن، ويدعو المؤمنين به إلى مغامرة تتخطّى المسافات الجغرافيّة والعقلانيّة: إنّها مغامرة "روحيّة" لا يمكن أن يختبرها الإنسان إلاّ من باب التواضع، تواضع القلب الذي فيه دائمًا موعد حاسم مع الصمت والاندهاش.

خاتمة

نعرض، في ضوء ما سبق، بعض خواطر في الإيمان، من وحي اختبار النساء أمام القبر الفارغ. إيمان يستند، من خلال بنية النصّ المثلّثة، إلى ثلاثة محاور: "حركة" النساء نحو القبر، و"تحدّي" النساء أمام القبر، و"تثبيت" النساء داخل القبر.

الإيمان حركة مستمرّة: حركة تَجاوُز الماضي بصورة دائمة، وتدشين حاضر منفتح على الحياة .

الإيمان تحدٍّ مستمرّ: تحدّي التساؤلات التي تبحث دائمًا عن إجابات، يجب ألاّ تصدّها الحواجز المنيعة.

الايمان تثبيت مستمرّ: إنّ حضور المؤمن في خضمّ الحياة اليوميّة يجب ألاّ يُخمِد رغبته في بحثه عن المسيح ؛ هذا البحث الذي يحتّم عليه أن يعيش اختبار تجرّد، أو موت عن الذات، و هذا يعني موتًا عن المخاوف والشكوك، حتى يولَد لرجاء حياة جديدة، علمًا أنّ هذا الرجاء مطبوع بواقع مزدوج: واقع حضور الله في حياة المؤمن، وغيابه عنها في آنٍ واحد .